رئيس التحرير والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب. ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

العدد السابع
تموز (يوليو) ١٩٥٧
السنة الخامسة

No. 7. Juillet 1957
5ème année

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

القوميّة العربيّة والإنسانيّة

بقلم الدكتور عبد الرحمن عبد الرحيم

تنحرف النزعة القومية عن مجراها وتنقلب الى عصبية ذميمة عندما تنسى جوهرها الانساني ، وحين تعتبر القومية غاية في ذاتها ، بدلا من ان تظل وسيلة لاذكاء انسانية الفرد . فتفتح الحياة القومية لا يمكن ان يضطلع به الا اناس افسحوا المجال لطاقاتهم الفردية وحرياتهم ، فذكت قدرتهم على الابداع والعطاء . وتفتح الانسان والطاقات الحرة لا يمكن ان يضطلع بـه ، في مقابل ذلك ، الا اناس عرفوا ان حقيقة هذه الطاقات مرتبطة الجذور بالجانب القومي لدى الانسان ، بالجانب المتصل بحضارة امته .

ولئن كان تاريخ النزعة القومية في البلاد الاجنبية ينبيء عن شيء من التلكؤ في ادراك هذه الرابطة بين القومية والانسانية ، فتاريخ هذه النزعة لدى العرب يفصح منذ البداية عن عمق الصلة بين هذه القومية والانسانية .

وقبل ان نذكر الشواهد العديدة على عمق هذه الصلة لدى العرب ، يحسن ان نستدرك فنبين ان من الخطأ الاعتقاد ، كما يزعم اكثر الكتاب ، ان تاريخ الفكرة القومية عند العرب تاريخ مولد مجلوب اتى اليهم بتأثير الافكار الاجنبية . صحيح ان هذه الافكار الاجنبية زادت في توضيح الفكرة القومية لدى العرب ، لاسيما في عصور البعث الاخيرة ، وعملت على اعطائها طابعا فكريا وفلسفيا حديثا . غير ان جذور هذه الفكرة نجدها عند العرب منذ اقدم العصور ، بل نجدها عندهم منذ البداية على وجهها الصحيح الذي تلتئم فيه القومية بالانسانية .

فلدى اعراب الجاهلية ، نجد الفكرة الوطنية نفسها ، تلك الفكرة التي كانت قبلية ضيقة ، تربط بين الاخلاص للقبيلة وبين الاخلاص للمثل العليا الخلقية ، العربية والانسانية في آن واحد . فالارتباط بالقبيلة عند عرب الجاهلية ، كان جسرا لارتباط اعمق واوسع يقود العربي الى الارتباط اولا بالمثل العليا العربية ومن ورائها بالمثل العليا الانسانية . او بتعبير اوضح ، كان الارتباط بالقبيلة هو الشكل — البدائي الذي يبرره العصر ، للارتباط بتقاليد الامة وتراثها المعنوي من جهة ، وبالتقاليد الخلقية الانسانية من جهة ثانية . فالجاهلي كان يمجد من خلال قبيلته طائفة من القيم الخلقية تشترك فيها سائر القبائل ، بل تتبارى عليها وتختصم . وهذه القيم الخلقية قيم عربية متوارثة ومتناقلة من جيل الى جيل . ولكنها في الوقت نفسه قيم تريد ان تفرض وجودها المطلق ، وجودها الانساني الشامل . اذ ما كان العربي في الجاهلية يؤمن بنسبية هذه القيم ، بل كان على العكس يريد ان ينصبها على شكل قيم عالمية مطلقة . بل نذهب الى ابعد من هذا : فاللغة العربية ، كانت بحد ذاتها لغة تحمل فلسفة عربية انسانية . والنظرة التي تستخلص من هذه اللغة ، نظرة حاملة للخلق وللمثل العليا الانسانية . والادب الجاهلي بدوره ادب انساني ، ومثله الحكم والامثال ، على قلة ما وصل الينا منها . ولا غرابة بعد هذا ان نقرأ لمثل « ماسينيون » :

« ان البعث الدولي للغة العربية عامل اساسي في اشاعة السلام بين الامم في المستقبل . وقد كانت هذه اللغة في نظر كثير من الفرنسيين المسيحيين — وانا منهم — وما تزال ، لغة الحرية العليا ووحي الحب والرغبة التي تطلب الى الله — من خلال الدموع — ان يكشف عن وجهه الكريم » .

هذا اذا لم نذهب الى ما وراء ذلك كله ، فنذكّر بالحضارات العربية الانسانية التي قامت في جزيرة العرب منذ اقدم عصور التاريخ ، او التي انتشرت من جزيرة العرب الى الاقطار المجاورة ، فأشاعت منذ ذلك الحين الارتباط الوثيق بين العمل القومي والعطاء الانساني . ثم ان الامتزاج

السياسي الفعلي بين الحضارة العربية والحضارات الاخرى، وعلى رأسها الحضارات الثلاث الكبرى اذ ذاك ، اليونانية والفارسية والهندية ، قد ظهر لدى العرب كما نعلم منذ ايام جاهليتهم . والعرب منذ الجاهلية تبدوا الورثة الحقيقيين لتلك الحضارات التي اخذت في الافول ، وعرفوا ان يمزجوا بين هذه الحضارات وبين حضارتهم العربية ، ليخرجوا من ذلك كله تراثا قوميا وانسانيا .

على ان هذا الارتباط بين القيم القومية والقيم الانسانية، ما كان ارتباطا ناضجا مكتملا في ذلك المجتمع الجاهلي . ولم يكمل نضجه الا بعد الحركة الاسلامية . ففي تلك الحركة حاول العرب ان يجعلوا من قيمهم واخلاقهم قيما انسانية، وان ينقلوها الى سائر افراد البشر ، وينعشوا عن طريقها سائر الناس . لقد بعث الرسول العربي ليتمم مكارم الاخلاق وليجعل من هذه الاخلاق اداة حضارة شاملة للناس. وهكذا كان الاسلام في اعماقه خير تعبير عن رغبة العرب في مجاوزة ذاتهم وكيانهم الضيق ، للخروج به الى الوجود الانساني الشامل . والقيم العربية التي كانت قلقة فى الجاهلية ، مضطرمة ولكن ضمن اتون لا تبرحه ، تواقة الى التحقق ، استطاعت في الحركة الاسلامية العربية ان تطمئن الى مستقرها الانساني ، وان تحفر اقنية انتشارها .

وهذه الرغبة في الفتح الانساني ، في فتح قومي يحمل الى الناس حضارة انسانية ومثلا انسانية ، تجلت في روح الدعوة الاسلامية وفلسفتها الدينية ، كما تجلت في روح الفتوح الاسلامية . فهذه الفتوح كما نعلم لم تكن غزوا واستيلاء بمقدار ما كانت انتشارا روحيا ، وغزوا خلقيا . فلقد حكم العرب ايام الفتح الاسلامي بأخلاقهم قبل ان يحكموا بسيفهم ، وكانت دعوتهم الى الناس كافة ، دعوة عدل واخاء ومحبة .

وقد تجلى هذا الارتباط بين القومية والانسانية لدى العرب ، في سائر فترات التاريخ العربي بعد الفتح . تجلى في الدولة الاموية التي كانت دولة عربية ، تحرص على القومية العربية كما نعلم ، والتي استطاعت ان تجعل من هذا الحرص شيئا انسانيا لا يتنافى مع العمل لحضارة انسانية مشتركة . فلقد حول الخلفاء الامويون كما يقول «فانتاجو» الجمهورية الدينية العربية الى امبراطورية حقيقية شبيهة بتلك التي كانت تحلم بها زنوبية من قبل ، وذلك بفضل تحررهم الفكري وضعف عصبيتهم الدينية . فضربوا الدنانير الذهبية على نسق الدراهم البيزنطية وجعلوا الخلافة وراثية بعد ان كانت انتخابية واستعملوا عمالا كثيرين من اليونان والسوريين واسندوا الى المسيحيين مركز الوزير الاول » . وكلنا يعلم كيف تبنى هؤلاء الخلفاء الامويون بعد غزواتهم وفتوحاتهم سياسة التعريب القريبة من سياسة الهيلينيين ، ولم يقيموا اي انقطاع ، في مجال الفكر والعلم ، بين التراث الجديد والحضارات القديمة ، وعلى رأسها اليونانية . بل اقبلوا على الافادة من الاطباء اليونان ومعارفهم ، ولجأ أعيان بني امية الى استشارة هؤلاء الاطباء وتكليفهم بتربية الشباب بغض النظر عن دينهم المسيحي واليهودي. وفي عهدهم استمرت المدارس اليونانية الصغيرة في دمشق وانطاكية ورأس العين، في نقل المخطوطات اليونانية الى السريانية . وكان الاساقفة يضيفون الى وظائفهم الدينية وظائف الاطباء واساتذة المنطق والمهندسين.

تضاف الى هذه الصلات بالعالم اليوناني ، والحضارة اليونانية صلات العرب ايام الحكم الاموي بالهند وتراثه ، ولا سيما فيما يتصل بعلم الحساب والفلك . اذ دخل النظام العشري الهندي حوالي عام ٧٧٣م ، حين حملت السلاسل الفلكية الى الخليفة مرفقة بالرموز العددية وبالاضافة الى الصفر ، كما اطلع العرب اذ ذاك ، فيما يبدو ، على مؤلفات «اريا جوبتا» و «براهما جوبتا» في الجبر .

وفي الوقت نفسه كانت مؤلفات ارسطو تنقل الى العربية في مدرسة رأس العين اليونانية ، التي اصبحت فيما بعد مدرسة رأس العين العربية .

وهكذا استطاع العرب ، كما يقول فانتاجو ايضا ، ان يتموا المهمة التي عجز عن اتمامها الفرس الساسانيون ، وهي المزج بين العلوم اليونانية والهندية . وكان لنجاحهم هذا كما نعلم نتائج بعيدة المدى في حضارة الانسانية .

ولا حاجة بعد ذلك الى الحديث عن امتزاج الثقافة العربية بالثقافات اليونانية والفارسية والهندية في عهد الدولة العباسية والى الاشادة بالروح الانسانية التي كانت تسير في تلك الدولة جنبا الى جنب مع الروح القومية العربية . وحسبنا ان نذكر ، بين امور عديدة تشهد جميعها بعمق الصلة بين العمل القومي عند العرب وبين العمل الانساني ، كيف ساعدت حكومة الاسرة البرمكية على تحقيق التعاون العربي الفارسي ضمن نطاق واسع، وكيف انتشر المسيحيون النسطوريون في الوقت نفسه في البلاد الساسانية وفي وادي دجلة خاصة، حيث اسسوا ديارات وحافظوا على حريتهم كاملة، وكيف كان الخلفاء يستقدمون هؤلاء المسيحيين الحاملين للتراث اليوناني ويكلون اليهم تربية اولادهم في كثير من الاحيان . وحسبنا ان نذكر كذلك تقدير امثال هارون الرشيد ، ذي النسب العربي الخالص وذي الروح العربية القومية ، للثقافة اليونانية ، وما امر به من نقل مؤلفات ابقراط وارسطو وجالينوس الى العربية . اما المأمون فقد اشرف على تربيته منذ صباه طبيب مسيحي هو حنا الماسوعي ، وعندما وصل الى الحكم ارسل الى اليونان والهند بعثات امرها بشراء كل المخطوطات التي يمكن الحصول عليها ونسخ ما لا يمكن الحصول عليه منها . بل انه بعد انتصاره على الامبراطور اليوناني ميشيل الثالث طلب اليه في المعاهدة التي فرضها ان يتنازل له عن بعض المؤلفات اليونانية النادرة الثمينة .

وكتب التاريخ حافلة بالشواهد والبينات على روح التسامح الانساني التي سادت المجتمع العربي . وليس

المجال مجال التحدث عن روح التسامح التي شاعت خاصة بين المسلمين واهل الذمة ، فكلنا يعرف عنها الشيء الكثير . وهذه الروح ، ان لم تكن في يومنا هذا ، موطنا لاي عجب او اعجاب ، فهي في تلك العهود الخوالي التي عرفنا فيها من مآسي النزاعات الدينية فى العالم ما عرفنا ، صفحة ناصعة في تاريخ العرب تنبىء عن عمق منازعهم الانسانية . انها هي التي دعت سائر المؤرخين الى الاشادة بانسانية المجتمع العربي ، وهي التي دعت مؤرخا كبيرا كـ« متز» الى ان يقول في صراحة وجزم :

« لقد كان وجود النصارى بين المسلمين سببا في ظهور مبادىء التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون. وكانت الحاجة الى الحياة المشتركة وما ينبغي ان يكون فيها من وفاق مما اوجد من اول الامر نوعا من التسامح لم يكن معروفا في اوروبا في العصور الوسطى . ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الاديان ، اي دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والاقبال على هذا العلم بشغف عظيم . »

افنذكر عابرين اذن جانبا من ذلك التسامح الذي يتجاوز معنى التسامح الديني ، ويحمل منازع انسانية اعم واشمل؟ انذكر ان بعض الخلفاء كانوا يحضرون المواكب الدينية لاهل الدمه واعيادهم ويأمرون بصيانتها ، وان الحكومة كانت تأمر في حال انقطاع المطر ، بعمل مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الاسقف ، واليهود ومنهم النافخون في الابواق؟ ام نذكر ما يثير عجب مثل «متز» ايضا حين يكتب :

« من الامور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين فى الدولة الاسلامية . اذ كان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الاسلام . والشكوى من تحكيم اهل الذمة في اشياء المسلمين واموالهم شكوى قديمة » . (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة ابو ريدة ، ص ٦٧) .

ام نذكر فوق هذا مكانة الجاثليق النسطوري والبطريق اليعقوبي واحبار اليهود في مصر والشام ؟ ام نذكر ما جرى حتى للصابئين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري يوم كتب لهم امير المؤمنين منشورا يأمر فيه بصيانتهم وحراستهم والذب عن حريمهم ورفع الظلم عنهم والتخلية بينهم وبين مواريثهم وترك مداخلتهم ومشاركتهم فيها ؟ بل لقد اعترف القرن الرابع الهجري للمجوس بأنهم اهل ذمة الى جانب اليهود والنصارى فكان لهم كاليهود رئيس يمثلهم فى قصر الخلافة عند الحكومة .

والامثلة اكثر من ان تحصى على هذا الضرب من التسامح ونحن لا نورده هنا لانه تسامح ديني وانما نورده لانه وجه من وجوه نزعة العرب الانسانية التي تركب بفطرتها مركب التسامح انّى حل، وتعترف للانسان بقيمته وكرامته ما دام انسانا ، وللمواطن بشأنه ما دام مواطنا .

والحق ان هذا التسامح الديني ، كما رأينا ، لم يكن موقفا سلبيا فقط ، وانما كان له وجهه الانساني الايجابي ، اذ كان يتجاوز رعاية اهل الذمة الى الافادة من علومهم ومن التراث الاجنبي الذي كانوا حملته غالبا ، لا سيما في اوائل عهد الفتح العربي .

ويطول بنا الحديث اكثر من هذا ان نحن اردنا ان نعدد الاعمال الكثيرة التي قام بها العرب فى سبيل نشر حضارتهم العربية ، وفي سبيل جعل هذه الحضارة حاملة للتراث الانساني ، ولا سيما اليوناني والفارسي والهندي . ويطول هذا الحديث خاصة ان حاولنا بعد هذا ان نبين ما قدمه العرب ، بعد هذا الهضم لتراث الاخرين وبعد هذه الصياغة العربية لعلوم الاولين من خدمات للحضارة الانسانية ، حين انتقل تراثهم الى اوروبا ، عن طريق الاندلس . وحسبنا ان نذكر ان احياء الخلفاء العباسيين للاثار اليونانية قد اظهر قيمة هذه الاثار لليونان انفسهم ، فأحدث ذلك في بيزنطة نوعا من اليقظة الهيلينية تأسست خلالها في هذا البلد مدرسة الـ « ماجور » تقليدا لدار الحكمة التي اسسها المأمون قبل ثلاثين سنة . وحسبنا ان نذكر ان الثقافة العربية في الاندلس اصبحت مبذولة لكل انسان . وان الغربي والقشتالي اذا اصيبا بمرض لايترددان في الاستشفاء عند العرب ، ويحجمان عن تسليم نفسيهما الى طبيب لاتيني . وهل ننسى ان الملك الفونس التاسع قد انشأ في بلنسية عام ١٢٨٠ ، اول جامعة مسيحية في اسبانيا على طراز الجامعات العربية ، وان احد خلفائه ، وهو الفونس العاشر قد بنى اول مرقب في الغرب واستخدم لذلك هيئة من فلكيي العرب واليهود نظموا قوائم فلكية سميت بالقوائم الالفونسية عام ١٢٥٦م ؟ بل هل ننسى ان بطل القرن الثالث عشر في بريطانيا ، « روجر باكون » ، قد استند فى تكوينه الثقافي الى المؤلفين العرب ، ولا سيما مؤلفات ابن الهيثم ؟ والامثلة اكثر من ان تحصى على ما قدمه العرب للغرب من تراث حضاري في سائر ميادين العلم والمعرفة ، وعلى الصلات المتبادلة التي قامت بين حضارة العرب وبين حضارة العالم بوجه عام . ولا يعنينا من هذه الامثلة كلها الا انها شواهد بينات على ان الفكرة العربية التي حملها العرب وارادوا اذاعتها بعد الاسلام ووطدوا لها فى خلافاتهم لم تكن عربية ضيقة ، فيها التعصب وفيها التنكر للامم الاخرى والحضارات الاخرى ، وانما كانت فكرة قومية غنية خصبة لا تعرف الضيق ولا تركن الى الغلبة ، بل تحمل تراثها وتراث غيرها ، وتغني تراثها وتراث غيرها عن طريق نضالها وغنائمها . وبهذا حققت لابنائها تفتحا ونموا ذاتيا ثرا ، وحققت للانسانية خدمات جلى ، اذ منحت هذه الانسانية الدفقة الحية التي انطلقت بها شطر الحضارة الحديثة كلها .

وحسبنا تلخيصا لذلك كله ان نورد ما قاله المفكر الاميركي « راندال » في كتابه عن تكوين العقل الحديث (الترجمة العربية ، ص ٣١٣ ــ ٣١٤) :

« ان عظمة العرب كانت كامنة في مقدرتهم على تمثل افضل ما في التراث الفكري للشعوب التي احتكوا بها ... فقد اخذوا من العلم اليوناني المعرفة الرياضية والطبية التي احتقرها الرومانيون ونبذها المسيحيون جانبا . وراحوا يعملون بصبر وجهد في ذلك الطريق الذي ازدراه الاغريق في اوج عظمتهم ، تابعين طريق التطور البطيء والتكيف العملي . وقد اكتسبوا من الهند الارقام « العربية » التي لا يمكن الاستغناء عنها ، وشكل التفكير الجبري الذي لولاه لما استطاع المحدثون قط ان يبنوا على الاسس التي وضعها الاغريق . وبنوا في القرن العاشر في اسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب بل كان علما طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية ، وفي الجملة كان العرب يمثلون في القرون الوسطى التفكير العلمي والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلهما في اذهاننا اليوم المانيا الحديثة .

وخلافا للاغريق لم يحتقروا المختبرات العلمية والتجارب الصبورة . اما في الطب وعلم الاليات ، بل في جميع العلوم، فقد استخدموا العلم في خدمة الحياة الانسانية مباشرة ولم يحتفظوا به كغاية في حد ذاتها . وقد ورثت اوروبا بسهولة عنهم ما ترغب ان تسميه بروح «باكون» التي تطمح في « توسيع نطاق حكم الانسان على الطبيعة » .

غير ان حوادث الايام لم تمهل هذه الحضارة العربية طويلا ، فما لبثت ان ذبلت بعد ان قدمت عطاءها للانسانية وبعد ان دفعت ركبها الى امام . واعقبت تلك العصور الزاهيات في تاريخ العرب عصور انحطاط ، كانت هي ايضا من جني الفكرة القومية . غير انها لم تكن هذه المرة من جني الفكرة القومية الانسانية على نحو ما حملها العرب ، وانما كانت من جني فكرة قومية منحرفة حملها الاعاجم الذين لم يدركوا رسالة العرب الانسانية ، فاستفادوا مما حققه العرب لهم من رعاية ومزايا ، ليقلبوها ضد العرب وليجعلوا منها اداة لعصبية ذميمة ، ظهرت فيها الافكار الشعوبية في أسوأ مظهر . وهكذا انقلبت هذه الشعوب الدخيلة على الحضارة العربية التي نشأتهم واحسنت وفادتهم ، ولم يدركوا الهدف الانساني البعيد لاشتراك امثالهم في هذه الحضارة العربية ، وساءهم ان ينتصر العرب حضاريا ، فكادوا لهم عسكريا ، وكانت لهم الغلبة الحربية ، وان كانوا لم يصيبوا الغلبة الروحية (*) .

عبد الله عبد الدائم

(*) فصل من كتاب « القومية والانسانية » الذي صدر اليوم عن « دار الآداب » ببيروت

صدر عن دار المعارف بيروت

سلاسل قراءة حديثة

مرحلة الروضة

حدائق القراءة ــ الروضة الاولى
حدائق القراءة ــ الروضة الثانية

مرحلة التعليم الابتدائي

حدائق القراءة ــ الحديقة الاولى ــ الصف ١١
حدائق القراءة ــ الحديقة الثانية ــ الصف ١٠
حدائق القراءة ــ الحديقة الثالثة ــ الصف ٩
حدائق القراءة ــ الحديقة الرابعة ــ الصف ٨
حدائق القراءة ــ الحديقة الخامسة ــ الصف ٧

مرحلة التعليم الثانوي

حدائق الادب ــ الجزء الاول ــ الصف ٦
حدائق الادب ــ الجزء الثاني ــ الصف ٥
حدائق الادب ــ الجزء الثالث ــ الصف ٤
حدائق الادب ــ الجزء الرابع ــ الصف ٣

سلسلة في تاريخ لبنان

تاريخ بلادي الجزء الاول
تاريخ بلادي الجزء الثاني
تاريخ بلادي الجزء الثالث
تاريخ بلادي الجزء الرابع

سلسلة في الحساب

دفتر الحساب المصور ــ جزءان

سلسلة في الخط (الرقعي)

الخط الواضح خمسة اجزاء

دار المعارف ــ بيروت

بناية العسيلي السور ص.ب. ٢٦٧٦ تليفون ٢٣٥٧٤